في الأدب العربي

عكاظ والمربد

للاستاذ أحمد أمين

— ٢ —

وقد يتفاخر الرجلان من قبيلتين فيفخر كل بقبيلته ومكارمها ، نيتحاكمان الى حكم عكاظ ، كما فعل رجل من قضاعة فاقر رجلا من اليمن فتحاكما الى ذلك الحكم (١)

ومن كان داعيا الى اصلاح اجتماعي أو انقلاب ديني كان يرى أن خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من أنحاء الجزيرة مجتمعة ، فمن قبل الدعوة كان من السهل أن يكون داعيا فى قومه اذا عاد اليهم ، فنرى قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ويخطب فيها خطبته المشهورة علي جمل له أورق ، فيرغب ويرهب ويحذر وينذر .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتجه الى دعوة الناس بعكاظ لأنها مجمع القبائل ، روي الواقدى أن رسول الله أقام ثلاث سنين من نبوته مستخفيا ، ثم أعلن فى الرابعة فدعا عشر سنين ، يوافي الموسم ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ والمجنة وذى المجاز ، يدعوهم الى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحدا ينصره حتى انه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة ، حتى انتهى الي بنى عامر بن صعصعة فلم يلق من أحد من الأذي ما لقى منهم (٢) وفى خبر آخر أنه أتي كندة في منازلهم بعكاظ فلم يأت حيا من العرب كان ألين منهم (٣) وعن على بن أبي طالب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج فى الموسم فيدعو القبائل فما أحد من الناس يستجيب له نداءه ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ ومنى حتي يستقبل القبائل ، يعود اليهم سنة بعد سنة ، حتى كان من القبائل من قال : أما آن لك أن تيأس منا ؟ من طول ما يعرض نفسه عليهم ، حتى استجاب هذا الحى من الأنصار (١)

وروى اليعقوبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال : يا أيها الناس قولوا لااله الا الله تفلحوا وتنجحوا ، ويتبعه رجل يكذبه وهو أبو لهب بن عبد المطلب (٢)

كذلك كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبى ، فقد رأينا قبائل العرب علي اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته اليها ، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق (٣) ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه اليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ معرضا للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : « كانت بعكاظ منابر فى الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام الى عام فيما أخذت العرب أيامها وفخرها » ، وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء توارثوا دمشق بملك كابرا بعد كابر
يؤمون ملك الشام حتي تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر (٤)

فيقف اشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم .. فبدر بن معشر الغفارى . . . . كان رجلا منيعاً مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ فاتخذ مجلسا بهذه السوق وقعد فيه وجعل يبرح على الناس ويقول .

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا فى عينه لايطرف
ومن يكونوا قومه يغطرف كأنهم لجة بحر مسدف

فيقوم رجل من هوازن فيقول :

أنا ابن همدان ذوى التغطرف بحر بحور زاخر لم ينزف
نحن ضربنا ركبة المخندف اذ مدها فى أشهر المعرف (٤)

---

(١) أمثال الضبي ص ١٨ (٢) دلائل النبوة ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣) ص ١٠٣ .

(١) ص ١٠٥ . (٢) اليعقوبي ١ ص ٢٣ و ٢٤ . (٣) يروون أن عبد الله بن جدعان أتي مصر فباع ما معه وعاد الى سوق عكاظ . انظر الاكليل للهمداني جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها . (٤) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٧٠ (٥) الاغانى ١٩ ص ٧٤

وعمرو بن كلثوم يقوم خطيبا بسوق عكاظ وينشد قصيدته المشهورة:
ألا هبي بصحنك فاصبحينا (١)

والاعشى يوافي سوق عكاظ كل سنة ، ويأتي مرة فاذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها فينشدهم الاعشى فى مدح المحلق (٢) والنابغة الذبياني تضرب له قبة أدم بسوق عكاظ يجتمع اليه فيها الشعراء فيدخل اليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعاً ويفاضل بينهم و ينقد فيما زعموا قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى

فيقول لحسان قللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر . وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان ابلغ فى المديح لأن الضيف بالليل اكثر طروقا (٣)

ودريد بن الصمة يمدح عبدالله بن جدعان بعدان هجاه فيقول :

اليك ابن جدعان اعملتها محففة للسرى والنصب (٤) الخ

وقس بن ساعدة يخطب الناس خطبته المشهورة فيذكرهم بالله والموت ورسول الله يسمع له (٥)، والخنساء تسوم هودجها براية وتشهد الموسم بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها فى أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وتنشد في ذلك القصائد ، فلما وقعت وقعة بدر وقتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أقبلت هند بنت عتبة الى عكاظ ،وفعلت كما فعلت الخنساء ، وقالت اقرنوا جملي بجمل الخنساء ففعلوا ، فعاظمت هند الخنساء فى مصيبتها وتناشدتا الأشعار : تقول احداهما قصيدة فى عظم مصيبتها وترد الأخرى عليها (٦) . وعلى الجملة فكانوا فى عكاظ يتبايعون ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون ، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم ، وفى ذلك يقول حسان :

سأنشر ما حييت لهم كلاما ينشر فى الجامع من عكاظ

فمن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق كما كانت مركزا لحركة اجتماعية واقتصادية .

نظام سوق عكاظ

كانت القبائل — كما أسلفنا — تنزل كل قبيلة منها فى مكان خاص بها ، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو فى الحلقات المختلفة . كالذى حكينا أن الأعشى رأي الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ، أو في قباب من أدم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء في المجامع ، وقد يكون ذلك سببا فى خطبة أو زواج او تنادر (١) وكانت تحضر الأسواق — وخاصة سوق عكاظ — أشراف القبائل ، وكان اشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل ان الملوك كانت ترضخ للاشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، الا عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل أوب » (٢) .

والظاهر أن المراد بالملوك هم الأمراء ورؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها في أسواق العرب كملك الحيرة والغساسنة وأمراء اليمن ونحوهم — وكانت القبائل تؤتى لرؤسائها اتاوة في نظير اقامتهم بالسوق ، فقد ذكر اليعقوبى فى تاريخه أخبار أسواق كثيرة كان يعشرها أشرافها — أى يأخذون العشر (٣) وفى عكاظ كانت القبائل تدفع لأشرافها هذه الاتاوة ، فهوازن كانت تؤتي زهير بن جذيمة الاتاوة كل سنة بعكاظ ، وهو يسومها الخسف وفى أنفسها منه غيظ وحقد » (٤) وكانت الاتاوة سمنا وأقطا وغنما (٥) ، وكان عبد الله بن جدعة سيدا مطاعا وكانت له اتاوة بعكاظ يؤتي بها ، ويأتي بها هذا الحى من الازد وغيرهم ، ومن هذه الاتاوة ثياب (٦)

وكان الاشراف يمشون فى هذه الأسواق ملثمين ، ولا يوافيها (عكاظ) شريف الا وعلى وجهه برقع مخافة ان يؤسر يوما فيكبر فداؤه ، فكان أول من كشف طريف العنبرى ، لما رآهم يطلعون فى وجهه ويتفرسون في شمائله ، قال : قبح من وطن نفسه الا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الىّ عريفهم يتوسم
فتوسموني انني أنا ذلكم شاكى السلاح وفي الحوادث معلم

الى آخر الأبيات (٧)

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس اليه أمر الموسم واليه القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان فى بنى تميم .... وكان من اجتمع له ذلك منهم بعد عامر بن الظرب العدواني سعد بن زيد بن مناة من تميم ، وقد فخر المخبل بذلك فى شعره :

ليالى سعد فى عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب

(١) الاغانى ٩ ص ١٨٢ (٢) الاغانى ٨ ص ٧٩ ، ٨٠
(٣) أغاني ٨ ص ١٩٤، ١٩٥ (٤) أغانى ٩ ص ١٠
(٥) اغانى ١٤ ص ٤١ و ٤٢ (٦) صفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

(١) أنظر الاغانى ج ١٠ ص ١٤٥ ومابعدها و ج ١٣ ص ١٤٠ ومابعدها
(٢) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦ (٣) اليعقوبي جزء ٢ ص ٣١٣ وما بعدها (٤) الكامل لابن الاثير ١ ص ٢٢٩ (٥) أغاني ١٠ ص ١٢
(٦) أغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها (٧) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦

حتى جاء الاسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع (١)

تاريخ عكاظ :

من العسير جدا أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد فى ذلك خبرا يصح التعويل عليه ، يقول الألوسى في بلوغ الأرب ، انها اتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، ولكن اذا بحثنا فى الأحداث التى رويت فى عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون — كما قدمنا — أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته فى عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان على وجه التقريب حول سنة ٥٠٠ م .

كذلك اذا عدنا الى ما رواه المرزوقى فى الازمنة والأمكنة عن رؤساء عكاظ وجدنا أنه عدهم قبل الاسلام عشرة ، أولهم عامر بن الظرب العدواني . وهذا — من غير شك — يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسى بزمان طويل ، كذلك يروى الأغاني ان عبلة زوجة عبد شمس بن عبد مناف باعت أنحاء سمن بعكاظ (٢)

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الاسلام حروب الفجار ، وهى حروب أربع ، وكان سبب الأولى على ما يروي ، المفاخرة فى سوق عكاظ . وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق عكاظ وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع اذلاله فى سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرجال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر الى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض فى الطريق (٣)

فكلها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومتى (٤)

واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات . وقد كانت هناك نزعتان عند أشراف العرب نزعة قوم يقصدون الى السلب والنهب وسفك الدماء لا يصدهم صاد ، ولا يرعون حتى الأشهر الحرم ، ويتحرشون بالناس ، فيمد أحدهم رجله فى سوق عكاظ ويتحدى الأشراف مثله أن يضربوها فتثور من ذلك الثائرة (٥)

وفريق يميل الى السلم ودرء أسباب الحروب ونجاح التجارة والأسواق بتأمين السالكين وعدم التعرض لهم بأذى ،

(١) أنظر تعداد من ولى عكاظ في الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٧
(٢) أغاني ١ ص ٨٤ . (٣) انظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والاغانى .
(٤) النهاية لابن الاثير مادة فجر (٥) الاغانى ٤ ص ١٣٦ .

جاء فى تاريخ اليعقوبي : « أنه كان فى العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الأسواق فسموا « المحلون » وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة « المحرمون » فاما المحلون فكانوا من أسد وطيء وبنى بكر بن عبد مناة وقوم من بنى عامر بن صعصعة — وأما الذادة المحرمون فكانوا من بنى عمرو بن تميم وبنى حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وقوم من بنى شيبان . . . فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس (١) — .

وكان من أشهر الداعين الى السلم عبد الله بن جدعان ، فقد كان اذا اجتمعت العرب فى سوق عكاظ دفعت أسلحتها الى ابن جدعان ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا ، وكان سيدا حكيما مثريا (٢) .

ويظهر أن أصحاب هذه النزعة الثانية وهم الذادة هم الذين سموا هذه الحروب حرب الفجار ، لما ارتكب فيها من الفجور وسفك الدماء ، وهم الذين تغلبوا فيما بعد ونجحوا فى وقف هذه الحروب ، ودعوا الناس أن يعدوا القتلى فيدوا من فضل ، وأن يتعاقدوا على الصلح ، فلا يعرض بعضهم لبعض ، وربما كان من أثر ذلك حلف الفضول ، وقد عقد فى بيت عبد الله بن جدعان هذا .

واستمرت عكاظ فى الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضيا لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم في الجاهلية وصار ذلك ميراثا لهم (٣)

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة اسواقا للعرب خيرا من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ . ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية . قال الكلبي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة في الاسلام حتى كان حديثا من الدهر ، فأما عكاظ فانما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدى الأباضى فى سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك

«البقية على صفحة ٢٧»

(١) اليعقوبى ٢ : ٣١٣ وما بعدها (٢) انظر الاغاني ١٩ ص ٧٣ وما بعدها (٣) الازمنة والامكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها .